إبراهيم عليه السلام

وخصال الكمال ومواهب الفضل كلها

(إبراهيم) ـ اسم أعجمي، وفيه لغات (إبراهام، وإبراهيم، وإبراهم).
ومعناه: أبو جمهور كبير وهو من الآباء الأولين ـ من دائرة المعارف ـ.

وجاء في بعض المعاجم نقلاً عن عدد من المراجع: أنه كان من أغنى الأنبياء وأكثرهم مالاً، وكان لا يأكل إلا مع الأضياف، ولهذا كان يكنى «أبا الأضياف».

ويقال أن «إبراهيم» اسم عربي يتصل بلفظ «برهم» ففي لسان العرب «البرهم» من قولهم برهم إذا أطال النظر، والبرهمة هي «إدامة النظر وسكون الطرف»، وقد كان عليه السلام يديم النظر في ملكوت السماء والأرض، كقوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (الصافات: ٨٨).

وتقول بعض المعاجم أيضًا: أن معنى «إبراهيم» وهي من حروف (ب ر هـ م) أي الحجة والبرهان، وهذا المعنى يتضح في مناظرته مع قومه ثم مع النمروذ:

(إسماعيل) ومعناه: زهرة الحياة، وقيل: أنه «من سمع الله لك فيه» وهي بالعبرية.

(إسحق) ومعناه: البشري والذي يضحك كما جاء في دائرة المعارف، وقيل أنه اسم عربي يتصل بلفظ «سحق» وهو البعد، وقد ولد لإبراهيم عليه السلام بعد زمن سحيق أي بعيد من بشارة الله سبحانه لنبيه إبراهيم الخليل عليه السلام.

(يعقوب) أي المشتق من العقب بعده، لأنه خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسمي (يعقوب)، وهو «إسرائيل» الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل، وقيل أيضًا أنه اسم عربي متصل بلفظ العقب والعاقبة وهي «أبناء الرجل من بعده».

وأما الأسماء التي لم تذكر صراحة في القرآن فهي:

(**سارة**) والمعنى: رئيسة ومدبرة، وهي زوجة إبراهيم وأم إسحق، واسمها الأول «ساراي» أي رئيستي.

(**هاجر**) والمعنى: هجرة وغريبة، وهي أم إسماعيل ويقال إنها من «هـ ج ر» والمهاجرة من أرض إلى أرض.

(**النمروذ**) ومعناه: قوي، وسوف نتمرد، وهو من أحفاد «حام»، وهو أحد ملوك الدنيا الأربعة: مؤمنان وهما (ذو القرنين وسليمان)، وكافران وهما (النمرود وبختنصر)، ويقول الزركشي في (البرهان): «لم يذكر القرآن اسمه لشهرته في الغباء والبلادة».

وكل هذه المعاني جاءت في القرآن الكريم، فقد ذكر عن إبراهيم عليه السلام أنه سبحانه أتاه رشده صغيرًا، وأرسله رسولاً، واتخذه خليلاً، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (النحل: ١٢٠).

وأما قصته مع النمروذ وكيف أقام عليه الحجة والبرهان، وكانت أسئلته فيها الغباء والبلادة بعكس الأسئلة التي وجهها فرعون إلى موسى عليه السلام فكانت تتسم بالذكاء ـ وهو ما يعرف بالذكاء المدمر أي في الشر ـ، وقد بدأت الآية من سورة البقرة بالتعجب من أمر النمروذ بن كنعان وحماقته المتناهية، بدأت الآية بالتعجب الذي جاء على صورة الاستفهام لإنكار النفي وتقر المنفي، وقيل: أنها كانت عند تكسير الأصنام، وكان النمروذ قد سجنه، ثم أخرجه من السجن ليحرقه، وقيل: أنه كان قبل الإلقاء في النار، كقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة: ٢٥٨).

ومن شدة غباء النمروذ أنه أحضر رجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر، وكان في استطاعة إبراهيم عليه السلام أن يبطل هذا القول لأنه لا يدخل في المشيئة الإلهية - حاشا لله - فهو من أفعال الظلم وليست من صفات العدل، ولهذا انتقل إلى دليل آخر لا مجال فيه للمناقشة، وهو طلوع الشمس من المغرب، ولهذا لم يستطع أن يتكلم لأنه لا قدرة لأحد من الخلق عليه.

ثم يتحدث القرآن في أكثر من موضع بأنه سبحانه وهبه الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده، فعلى أحد من نسله وعقبه.

وأول من ولد له فهو إسماعيل عليه السلام من هاجر القبطية المصرية، وقد بشرتها الملائكة بأنها ستلد غلامًا وسيكون من نسله من تكون يده على الكل، ويد الكل به، ويملك جميع أخوته، وهذه البشارة تنطبق على ولده محمد صلى الله عليه وسلم ابن الذبيحين.

وإسماعيل عليه السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة، وكان قد أخذ كلام العرب من «جرهم» الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم، وقد أنطقه الله سبحانه بها في غاية الفصاحة والبيان.

ومنذ أن وعى إسماعيل عليه السلام وقبل أن يدخل مرحلة الشباب، وهو صاحب همة وصدق فقد كُتب عليه أن يشب في مكان قفر بوادي غير ذي زرع بمكة، وقد أثبتت الحفريات والنقوش أنه كان يمشي في الأسواق، وكان صادق الوعد، وكان رسولاً نبيًا، كما أخبر القرآن: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم: ٥٤-٥٥).

﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾، الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كلهم صادقون في وعودهم، ولكن القرآن خصه لأنه صدق الوعد في أغلى شيء وهي حياته، حينما لم يتردد لحظة واحدة في تنفيذ الأمر الإلهي، وقد عفا عنه ـ سبحانه ـ من الذبح بكبش أملح، وقيل هو الذي كان هابيل، فأدخره ـ سبحانه ـ ليعلم عباده أن الخير من الأجداد ينفع الأبناء.

ثم أوحى الله سبحانه إلى إبراهيم عليه السلام يبشره بإسحق فخر ساجدًا لله سبحانه وتعالى، وقد زعم اليهود أن الذبيح هو إسحق عليه السلام وأن أباه قدمه قربانًا لله على صخرة بيت المقدس، ولهذا يقدسونها، والقرآن يبين كذبهم، فالملائكة بشرت بإسحق عليه السلام بعد وقوع هذه الحادثة لإسماعيل عليه السلام والذي كان قد بلغ السعي مع أبيه، وأنها لم تحدث كما يدعون في أرض فلسطين بل في أرض الحجاز.

يقول سبحانه: **﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** (الصافات: ١٠٢).

تلك هي قصة النبي الكريم الذي تصلي عليه وتباركه خير أمة أخرجت للناس في كل صلاة، والذي ذكره القرآن في تسعة وستين موضعًا ومنها سورة باسمه، وأول من سمى الدين بالإسلام، وأول من هاجر إلى الله سبحانه، وأول من اختار الحنيفية عقيدة ومنهاجًا، النبي الكريم إبراهيم عليه السلام والذي وصفه آخر الأنبياء وخاتمهم صلى الله عليه وسلم بأنه «**خير البرية**» (جزء من حديث رواه مسلم).

وأيضًا أخبر عن (دعوة إبراهيم صلى الله عليه وسلم) بأنه لما ألقي في النار قال: «**اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض لا أحد غيري يعبدك**» (جزء من حديث رواه البخاري).

يقول تعالى: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾** (النساء: ١٢٥).

لـوط عليه السلام

صاحب البيت الطاهر

(**لأط**): لأطا فلانًا أي أمره بأمر فألح عليه.

و(**لط**): لطَّا الرجل بالأمر أي لزمه.

و(**لاط**): لوطًا الرجل الحوض أي طلاه وملسه بالطين، والشيء بالشيء لصق، والولد بفلان أي ألحقه به ونسبه إليه، وفلان لواطًا أي عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط عليه السلام من ارتكاب الفاحشة.

وجاء في بعض المصادر: ـ (**استلاطه**) **الزقه بنفسه**، و(**لوط**) **اسم ينصرف مع العجمة والتعريف** ـ وأن معنى (لوط) أي النقاب والغطاء أي (السترة).

وكل هذه المعاني تتضح فيما ذكره القرآن فقد أمر قومه بأن يتركوا الفاحشة وألح عليهم مرارًا بذلك، حتى أنهم أرادوا طرده من بينهم.

وإذا كان أهل الكتاب ظلموا هودًا وصالحًا ـ عليهما السلام ـ تجاهلاً، وظلموا إسماعيل عليه السلام حقدًا وحسدًا، إلا أن ظلمهم للنبي الطاهر الشريف لوط عليه السلام أشد وأقسى، وقد أخطأوا في قصته خطأً عظيمًا.

شتان بين لوط عليه السلام في القرآن وبينه كما صورته الإسرائيليات، صورة بشعة تهبط بالبشرية إلى الحضيض، فما بالك مع نبي كريم؟!

وملخص القصة كما ذكرها القرآن في أكثر من موضع أن نبيهم عليه السلام دعاهم إلى التوحيد والإقلاع عن الفاحشة، فأصروا على الامتناع، وكانت مدائنهم

تسمى «سدوم» بالشام، وقد اقتلع جبريل عليه السلام قراهم ورفعها بين السماء والأرض، ثم قلبها وجعل أعلاها أسفلها.

ولوط عليه السلام خصه الله سبحانه مع الصفوة من خلقه بالصلاح والإمامة والقدوة، والنبوة والوحي، وأنه كان يأخذ قومه إلى الفضيلة بالأسلوب الرشيد والمنطق السديد، كما أخبر القرآن: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٤-٧٥).

وأدب النبوة يتضح في الآية من سورة الأعراف حين يتوجه إليهم بأسلوب الاستفهام، ولكنه استفهام تقريع واستنكار: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٨٠).

وتأمل قوله سبحانه وتعالى عندما يصف العذاب الذي نزل بقومه، ولم يكن فيهم غير بيت للمسلمين، وهذا البيت فيه نبي الله عليه السلام وابنتاه، وأما زوجته فقد نالها العذاب.

ولقد ذكرت الإسرائيليات أن ابنته الكبرى سقته خمرًا لتقضي معه ليلتها، وتفعل الصغرى ذلك أيضًا في الليلة الثانية . . !!

وهكذا لم تترك الإسرائيليات البيت الطاهر إلا وقد دنسته، وكأنها ملأت حدائق الثمار الطيبة بالأشواك والعشب، وذلك لتورطهم في الشطط الجامح.

يقول ابن كثير: «وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطًا عظيمًا» (البداية والنهاية).

إنها صورة قاتمة تحار في إدراكها العقول، وتؤكد أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ومعذرة في استعارة أحد الأوصاف التي ذكرها خادمهم - إنها الإسقاط -[1].

وقد صنف الإمام الذهبي: «التلوط من أشد الكبائر إثمًا وأبعدها عن الفطرة السليمة» (من كتاب الكبائر).

وقد اجتمع لهؤلاء القوم من الخصال الدنيئة ما أبعدتهم عن نخوة الرجال والبعد عن الحياء والخجل، وانقباض النفس عن القبيح حذرًا من اللوم، ومن هذه الخصال: شرب الخمر، والتشبه بالنساء ملبسًا وهيئة، وقطع الطريق، وخيانة الرفيق، والمنكر من الأقوال والأفعال، ولهذا كانوا كلما هموا بالمعصية والتي يهتز لها عرش الرحمن من فوق سبع سموات، كانوا لا يهتمون بشيء لأنهم ارتموا في أحضان الشيطان، وفقدوا نخوة الرجولة.

ومن قصة لوط عليه السلام نجد الإجابة على السؤال الذي يحير أهل الفضيلة في هذه الأيام: لماذا كل هذا الحقد الأسود من أهل الكفر والضلالة والدنس على أهل الإيمان والنور والطهارة؟

لقد حقد قوم لوط عليه السلام على المؤمنين ووصفوهم بأنهم «قوم يتطهرون» وكأن الطهر أصبح عيبًا . . !! أو كما أخبر القرآن - بوجه عام - ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء: ٨٩).

وذلك لأن أهل الكفر والمنحرفين والضالين قد قتلوا في أنفسهم - وبأيديهم - فطرة الخير، فماتت الضمائر وأصبحت الحياة عبثًا لا فائدة منها - وهذا يفسر ارتفاع أعداد المنتحرين عندهم -.

---

(١) **الإسقاط**: عملية دفاعية وهو أن يلصق الفرد صفة من صفاته السيئة والغير مقبولة بالآخرين.

إنهم يريدون بكل الطرق وبشتى الوسائل إيقاع غيرهم في براثن الوحل حتى يكونوا وهم كمـا أخبـر الكتاب الحق ﴿فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾، وذلك لأنهم وحتى إذا أرادوا أن يتجملوا ويتظاهروا بالنظافة والطهر لا تكفيهم أنهار العالم.

وهذا ما يفسر موجات الضـياع والانحلال والتي تأتي ممن يدعون أنهم رعاة العدالة والديمقراطية والتقدم، ويريدون فرضـها على غيرهم وحتى يكونوا مثلهم في عبـادة الشيطان وإباحة الشذوذ، والبـعد عن كل ما يمت للفضـيلة والأخلاق والشهامة والرجولة.

إن دعوة لوط عليه السلام ما هي إلا بيان لقوم يعملون لآخرتهم، وآخرين يعملون لدنياهم ولا يريدون أن يكون أحد خـيرًا منهم، إن دعوة لوط عليه السلام بكل ما فيها من فضائل الصـفات، وكرائم الشمائل، مـا هي إلا تحذير لأهل الجنة ـ إلى يوم القيامة ـ أن يكونوا على حذر من تلك الموجات المتلاحقة الفاسدة، وأن يتسلحوا بقـيم الإيمان التي يرشـد إليهـا الدين الحنيف وكـما أرشـدت كل الأديان، وأن يتمسكوا بالقيم النـبيلة التي بينها لهم نبيهم الخاتم صلى الله عليه وسلم ـ قولاً وعـملاً ـ وكما بينها الصفوة عليهم صلوات الله وسلامه.

ولهذا ترك الحق سـبحـانه علامة واضـحة بعـد إهلاك قوم لوط عليه السلام لتكون عبرة، وهي تسمى «بحيرة قوم لوط» ـ واختصار الاسم إلى بحيرة لوط خطأ ـ[1]، وقد تكونت هذه البحيرة بعد إمطار قراهم بحمم النار والكبريت، وتغشتها سحب من الأبخرة والتي تحـولت إلى ماء كـريه الطعم، فأصبـحت بحيـرة نتنة، خبيـثة مستقزرة، أشبه ما تكون بعملهم بما فيه من قذارة ودنس.

---

(١) ومن الأخطاء الشائعة كلمة «الوطى» بل يقال من «الشواذ جنسيًا».

يقول تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (الذاريات: ٣٧).

ليت كل مؤمن غيور على دينه يتأمل الآيتين الكريمتين من سورة النساء ليعرف موقفه من هؤلاء الكافرين والمنافقين ولا يتخذهم أولياء: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٣٨-١٣٩).

وهكذا العزة لله في الدنيا والآخرة ولا ينالها إلا أولياء الله سبحانه وتعالى.

obeikandl.com

شعيب عليه السلام
خطيب الأنبياء

(شعب): شعب الشيء أي أصلحه.

(ش ع ب): والشعب هي الأغصان.

وقوم مدين هم (أصحاب الأيكة).

(أ ي ك): (الأيك) الشجر الكثيف الملتف والواحدة (أيكة)، فمن قرأ «أصحاب الأيكة) فهي الغيضة، ومن قرأ «أصحاب ليكة) فهي اسم القرية.

ويقال أن اسم (شعيب) هو بالسريانية «يثرون» ومعناه الشريف النسب.

وكل هذه المعاني جاءت في القرآن:

أصحاب الأيكة يريدون أن يكون طريق الله ـ سبحانه ـ عوجًا مائلاً حسب هواهم، وأخاهم عليه السلام يريد الإصلاح لهم كما أخبر القرآن: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (هود: ٨٤)، هذا عندما تحدث عن نسبه وأما في الشعراء فقد برأه من أخوته لهم فيقول سبحانه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٧٦-١٧٨).

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان، فأرسل الله ـ سبحانه ـ لهم شعيبًا عليه السلام فآمن بعضهم وكفر أكثرهم، فأنزل الله سبحانه بهم العذاب.

ومن بلاغته عليه السلام أنه ذكرهم بالنعمة قبل التحذير بالنقمة، وبين لهم أن إنقاص المكيال والميزان يمحو البركة في الدنيا مع عذاب الآخرة.

ومن بلاغته عليه السلام التلطف في العبارة والدعوة إلى الحق قولاً وعملاً والمزج بين الترهيب والترغيب.

وقد تحلى عليه السلام بكل الصفات الحميدة ـ مثله في ذلك ككل الأنبياء ـ والتي يجب على ورثتهم أن يتحلوا بها: الحلم والصفح والثبات ورجاحة الفكر وحسن الخلق والقدوة.

وهذا يفسر مقابلته الإساءة حيث وصفوه بالسفه، فلم يطش ذلك حلمه، لأن الشقة بعيدة بين رجل اصطفاه ربه رسولاً فهو في الذؤابة من الخير والبر، وبين سفاهة قوم تهاوت عقولهم إلى عبادة الأحجار، وما وصفوه بالحليم الرشيد إلا سخرية واستهزاءً، يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

ومن أشد المواقف تأثيرًا في النفس لما نعى عليه السلام قومه إلى أنفسهم موبخًا ومؤنبًا ومقرعًا بعد أن رأى عذابهم وهلاكهم، وبعد أن أدى ما كان واجبًا عليه من البلاغ التام والنصح الكامل والحرص على هدايتهم، وهذا الموقف الرائع يذكرنا بالنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم وهو يخاطب الصرعى من صناديد قريش بعد موقعة بدر مناديًا عليهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «.. **فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟**» (جزء من حديث متفق عليه).

يقول سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٩٢-٩٣).

وقد جاء في الحديث المرفوع الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان كثير البكاء على قومه بعد هلاكهم وذلك لتمنيه عدم تكذيبهم له، وقد أوحى الله سبحانه إليه: «يا شعيب أتبكي خوفًا من النار أم شوقًا إلى الجنة؟ قال: بل من محبتك يا رب».

ومن أهم الدروس في قصته عليه السلام بيان أن التطفيف ليس بالأمر الهين، بل هو من أشد الكبائر، وقد نزلت فيه سورة بدأت بالويل وهي كلمة عذاب أو وادٍ في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره.

يقول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين: ١-٦).

وقال السدي وغيره: أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات الكريمة من سورة المطففين وهي آخر ما نزل بمكة ـ وترتيبها حسب المصحف ٨٣ وحسب نزول الوحي ٨٦ ـ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ ذكر «خمس بخمس» ومنها «**ولا طففوا الكيل إلا ومنعوا القطر من السماء**» (جزء من حديث رواه الطبراني في الكبير، وسنده قريب من الحسن).

وجاء في كتاب (الكبائر) للإمام الذهبي: «أن أحد الصالحين قال: دخلت على مريض وقد نزل به الموت فجعلت ألقنه الشهادة ولسانه لا ينطق بها، فلما أفاق قلت له: يا أخي مالي ألقنك الشهادة ولسانك لا ينطق بها؟ فقال: يا أخي لسان الميزان على لساني يمنعني من النطق بها، فقلت له: بالله أكنت تزن ناقصًا؟ قال: لا والله ولكن ما كنت أقف مدة لاختبر صحة ميزاني» (باب كبيرة التطفيف في الكيل والميزان).

فهذا حال من لا يعتبر صحة ميزانه فكيف حال من يزن ناقصًا؟!

وجاء في المأثور أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يمر بالأسواق، وينادي قائلاً: اتقوا الله وأوفوا الكيل والميزان، فإن المطففين يوقفون حتى أن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم.

والإسلام جعل الوزن أمانة، والكيل أمانة، ونهى عن الغش وحرمه، وقد أمر النبي ﷺ صاحب الطعام الذي أصابته السماء بأن يجعله فوقه حتى يراه الناس وقال له ﷺ: «**من غشنا فليس منا**» (جزء من حديث رواه مسلم).

وأيضًا من الكبائر التي أشاعها قوم شعيب عليه السلام (قطع الطريق) وذلك برفع السلاح على عباد الله للسرقة والترويع، وقد توعدهم الله سبحانه - ومن يفعل مثلهم - بالذل في الدنيا والعذاب في الآخرة، وذلك لأنهم يحاربون الله ورسوله كما قال مالك والأوزاعي والشافعي وغيرهم.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (المائدة: ٣٣).

وقوم شعيب عليه السلام أول من سن (المكوس) ـ وهي من الكبائر أيضاً ـ كانوا يأخذون العشور من الناس بالقتل والترويع، فكانوا من الظلمة القساة لأنهم يأخذون ما لا يستحقون، وقد توعد سبحانه من يفعل مثلهم بالعذاب الأليم يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: ٤٢).

obeikandl.com

يوسف عليه السلام
الكريم أحد النجباء السبعة

(يوسف): أ س ف ـ الأسف أشد الحزن وقد (أسف) على ما فاته، و(يوسف) فيه ثلاث لغات بضم السين وفتحها وكسرها، وحكى فيه الهمز أيضًا.

ويتضح هذا المعنى فيما قاله يعقوب عليه السلام، وقد أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، ومن الإعجاز القرآني أن (الأسف ويوسف) فيهما من التجانس غير المتكلف، وأن الأولى تعطي معنى الثانية.

يقول تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٨٤-٨٦).

(يعقوب) المشتق من العقب بعد إسحق، ويقال أنه خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه (يعقوب) أي: إسرائيل الذي ينتسب إليه (بنو إسرائيل).

ومن بلاغة القرآن أنه إذا خاطب الكتابين قال: «يا بني إسرائيل» ولم يقل: «يا بني يعقوب» حتى يذكرهم بالاسم الذي فيه تذكرة بالله سبحانه، وذلك لأن كل اسم فيه «ايل» فهو «الله» بالعبرانية، وكأن النداء «يا بني إسرائيل» أي «يا بني عبد الله».

وعندما أشرف عليه السلام على الموت أوصى بالمحافظة على عقيدة الإسلام اتباعًا لوصية جده إبراهيم عليه السلام، وليس كما قالوا أنه أوصاهم بالبقاء على يهوديتهم والإعراض عن أي دين غيره، وتحريفهم لما جاء في كتبهم المقدسة والتي بشرت

بوضوح بالنبي الخاتم ﷺ (إلى أن يجيئ الذي هو له وإليه تجتمع الشعوب) (سفر التكوين).

وقد كذبهم القرآن في كل ما ادعوه ـ زورًا وبهتانًا ـ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢)، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (يوسف: ٧).

﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾، تدل على أن هناك من سأل؟ إنهم اليهود بعثوا إلى محمد ﷺ من يسأله لعلمهم أن العرب قد تعرف شيئًا قليلاً من أخبار بعض الأمم السابقة كعاد وثمود وسبأ وغيرها، وهذا يتضح من أمثالهم المتداولة بينهم أو من مشاهدتهم للأطلال أثناء رحلتهم إلى الشام، وأما قصة يوسف عليه السلام فكانوا لا يعرفون عنها شيئًا، ولهذا عندما نزلت سورة يوسف المكية ـ ترتيبها في المصحف ١٢ وحسب نزول الوحي ٥٣ ـ وتتفق مع الكثير مما جاء في الكتب المقدسة قبل أن تحرف، تأكد لعدد من اليهود أن هذا القرآن وحي من السماء وأعلنوا إسلامهم.

يقول ابن الجوزي وهو أكبر الدعاة في عصره وقد عاش في القرن السادس الهجري: «إنك لو قرأت سورة يوسف جيدًا لأدركت أنه عليه السلام ما مدح إلا بصبره على عدم ارتكاب المعصية، ومخالفة الهدى، ولو كان وقع في المحظور من كان يكون؟ وهكذا صبر ساعة على المعصية بابًا لذكر دائم في الدنيا والآخرة» (من خواطر ابن الجوزي).

وأيضًا صبره جعله على رأس النجباء السبعة الذين يظلهم الله سبحانه يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم كما جاء في الحديث المتفق عليه: **«رجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال، فقال إني أخاف الله»**.

وكذلك كان صبره على المعصية سببًا في مدحه من الله سبحانه بأنه من عباده المخلصين، وقد علم الله تعالى أنه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم ناظرًا في دلائل التحريم حتى استحق الثناء العطر والذكر الحسن، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤).

وعندما سئل رسول الله ﷺ عن أكرم الناس؟ قال: «**يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**» (جزء من الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه).

وذلك لأنه جمع مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب، وأنضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه منه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الحسنة، وحياطته للرعية وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم، وإنقاذه إياهم من تلك السنين الجافة.

ولما كان علم التعبير من العلوم الشريفة فقد اختص الله سبحانه به يوسف عليه السلام، وعندما يقص رؤياه على أبيه، يعرف بأن الشرف والعلو سيأتيه من جهة تعلم هذا العلم الشريف.

وأما رؤيته عليه السلام فهي - كما ذكر ابن سيرين - تدل على الظفر والنصر، والسعة بعد الضيق، والفرج بعد الكرب، والنصرة بعد الظلم.

وهذا ما جاء في آخر قصته عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).

تتجلى روعة القصص القرآني في قصته عليه السلام وفي السورة التي تحمل اسمه، وقد ذكر النسفي في تفسيره: «إن الله تعالى لم ينزل كتابًا إلا وفيه سورة يوسف عليه السلام تامة كما هي في القرآن العظيم» (جزء ٢).

جاءت القصة في صورة مذهلة من النظم القرآني العجيب والفريد معًا، فقد تفوقت ـ كشأن القصص القرآني كله ـ على كل ما عرف العرب من أساليب الكلام: شعرًا ونثرًا وإرسالاً وسجعًا، ومع هذا فهي ليست من ذلك كله في شيء، بل هي كما أخبر القرآن عن نفسه، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (الواقعة: ٧٧-٧٨).

تبدأ القصة في الجب حيث الظلام والوحشة والغوص في أغواء النفس، مع التناغم والتراسل بين الحزن العميق والتسليم لأمر الله سبحانه، ثم تبدأ الأحداث تتوالى وحتى تصل إلى ذروتها حين يتحدث عليه السلام بضمير المتكلم مبدئًا نفسه وتواضعًا لله سبحانه، وحتى لا يكون مزكيًا نفسه، وأن أمانته كانت من توفيقه سبحانه وعصمته له، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣).

ولقد أخطأت الإسرائيليات في الكثير من قصته عليه السلام، قالوا أنه قص رؤياه على أبيه وأخوته، وأنهم لما خرجوا أرسله وراءهم يتبعهم فضَلَّ الطريق، والخطأ واضح فإنه ـ أي يعقوب عليه السلام ـ كان أحرص عليه من أن يبعثه وحده، وأما ما جاء في آية المراودة فالإعراض عن التحدث عنها أولى بنا، فالله سبحانه عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، وحديثهم يعتبر من الشطط والذي يؤدي إلى الكفر لأنه طعن في نبي كريم.

وأما الرؤيا فلم تنكرها الإسرائيليات وإن كانت ذكرتها بصورة مختلفة في أن البقرات السمان ثم الضعاف خرجن من النهر.

وأما خادمهم في العصر الحديث جاء لينكر هذا الجانب تمامًا من البشر، ويرى أن الغريزة الجنسية هي مصدر كل الأحلام لإشباع تلك الرغبة المكبوتة

وغيرها من الرغبات . . !! والقرآن يؤكد وقوع الرؤيا الصادقة، وسورة يوسف تؤكد هذا، بل إن واقع الناس يؤكد هذه الحقيقة، وقد أكدت الدراسات الحديثة ذلك واعتبرت نظرية خادم صهيون والمعروفة باسم «معالم التحليل النفسي» ما هي إلا هراء في هذا الأمر بالذات، وقد أقبل العلماء في العالم لإعادة دراسة كتاب «تفسير الأحلام» لابن سيرين جعله أساسًا هامًا لهذا العلم.

وأما ما ذكرته الإسرائيليات عن مقابلة الذئب مع يعقوب عليه السلام، والتي تفنن القصاص فيها فإنها لا سند لها، وخاصة وأنه لا يعرف لغة الطير والحيوان غير سليمان عليه السلام.

يقول الذئب: «يا نبي الله والذي اصطفاك نبيًا ما أكلت له لحمًا ولا مزقت له جلدًا، وما لي به علم، وإنما أنا ذئب غريب أتيت من أرض مصر في طلب أخ لي فقدته منذ أيام وجاءوا بي إليك وقد حرم الله علينا لحوم الأنبياء».

ووجه الطرافة التي أعجبت القصاص في هذه القصة الخيالية: إنسان يحاول قتل أخيه، ووحش يبحث عن أخيه.

وأما الصحيح أنهم - كما أخبر القرآن - وضعوا دم كذب على قميصه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، ولهذا قال أبوهم عليه السلام كما أخبر الحق سبحانه: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١٨).

والإسرائيليات شوهت صورة يعقوب عليه السلام بأن جعلته رجل دنيا كل همه الإكثار من الماعز والأغنام، وهو رجل ضراع يأخذ لنفسه القوي منها ويترك الضعاف لغيره، وحاشا لله أن يكون «الكريم» كما وصفه النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم قد فعل ذلك أو أنه مكث عند خاله عشرين عامًا دون أن يدعوه مرة واحدة إلى عبادة الله سبحانه وترك عبادة الأصنام.

وقد أنصفه القرآن في أكثر من موضع حين ذكر أنه تحلى بالصبر الجميل، وأنه ذو علم، وأنه ظل يبكي ابنه حتى أبيضت عيناه من الحزن، وأنه كان يدعو ربه: «يا ذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع معروفه أبدًا ولا يحصيه غيرك فرج عني» (الدعاء ذكره التسقي في تفسيره).

أين هذا السمو، من الانحطاط الذي صورته الإسرائيليات وهو يجمع بين الأختين[1]، وحياته كلها غش وكذب وخداع؟!

أبدًا ليست هذه حياة يعقوب عليه السلام والذي لا يطلب إلا الطعام والكساء، بل هي «إسقاط» ـ والمصطلح من قاموس خادمهم ـ لما يحدث في حياتهم.

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه عليه السلام شاكيًا له وحده دون خلقه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٦-٨٧).

---

(١) كان في شريعة يعقوب عليه السلام يحل الجمع بين الأختين، وقد جمع بين (ليا وراحيل) ولكنه لم يكن لغرض دنيوي كما تصوره الكتب المحرفة، ثم جاءت شريعة موسى عليه السلام وحرمت الجمع بين الأختين. ويوجد النسخ منذ شريعة آدم عليه السلام إلى شريعة عيسى عليه السلام، وفي هذا الرد على من ينكر الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم والذي لا يتعدى عدده أصابع اليدين.

أيوب عليه السلام

العبد الصابر

اهتمت المراجع العالمية بمعنى اسم «أيوب» عليه السلام وذلك لأن النشيد المنسوب إليه يجد اهتمامًا بالغًا في الآداب العالمية باعتباره قطعة أدبية فريدة، وقد جاء في تلك المراجع وغيرها من القواميس ودوائر المعارف:

(أيوب): ومعناه الرجل المستقيم، يتقي الله سبحانه ويحيد عن الشر.

(آئب): أي راجع من الضيق والشدة إلى الفرج والراحة.

(أيوب): ومعناه الذي يصرخ صرخة الألم من المكروه.

(أيوب): الذي يبكي، صرخة الويل، مكروه.

ومن الإعجاز القرآني أن كل هذه المعاني اشتملت عليها «كلمة واحدة» في وصف موجز بليغ للعبد الصابر عليه السلام: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤).

ومعنى ﴿أَوَّابٌ﴾، أي كثير الرجوع إلى الله سبحانه بالتوبة والإنابة والعبادة والذكر في جميع الأوقات.

اجتمع له عليه السلام منذ شبابه الجمال والمال والزوجة الحسناء والمكانة العالية، ثم تبدلت الأيام من الرخاء إلى الشدة.

ذهب المال، وهلك الأولاد، وأصاب البلاء جسده، ولم يبق له إلا قلبًا عامرًا بالإيمان ولسانًا شاكرًا، فكان يدعو قائلاً: الحمد لله الذي أعطى وأخذ.

وقد روى وهب بن منبه وغيره بأن زوجته قالت: يا أيوب لو دعوت ربك يفرج عنك، فقال: قد عشت سبعين عامًا صحيحًا، فهل قليل لله أن أصبر

سبعين سنة؟ وقيل: أنه خر ساجدًا وهو يقول: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدًا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه، وهذا ما ذكره القرآن: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١).

وقد نسب المرض إلى الشيطان تأدبًا مع ربه سبحانه، ثم يجد عين ماء فيغتسل من مائها، فيذهب البلاء عن جسده، وهذا ما أخبر به القرآن: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣-٨٤).

وقد أسهب المفسرون كثيرًا في تفسير الآيتين:

يقول النفي: من بلاغة القرآن أنه جاء بكلمة «الضُر» بالضم وليس بالفتح لأنها بالضم أي الضرر من المرض، وأما بالفتح فهو الضرر من كل شيء.

وأما الطبري فيقول: أنه لم يشتك بل أخبر بأنه لا يقدر على النهوض للصلاة لضعفه من شدة المرض، والشكاية لله سبحانه منتهى القرب وبينما الشكاية منه ولغيره غاية البعد.

والرازي يقول: إنه عليه السلام ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب لأنه سبحانه أعلم بحاله، فكأنه جمع بين سؤال يعقوب وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ.

وبعض المفسرين استشهد بالحديث الصحيح الذي رواه الشيخان وفيه ما معناه أن أشد الناس بلاءً الأنبياء، وأن ابتلاء المؤمن حسب دينه وحتى يمشي وما عليه خطيئة (نص الحديث في الصحيحين ورواه النسائي وابن ماجه).

وقد قيل أن الله سبحانه ابتلاه رحمة به، وحتى يتأسى أهل البلاء به في تحمل أشد البلاء، والذي ضرب به المثل في الصبر.

وقد ورد في بلاء أيوب عليه السلام الكثير من الروايات الواهية والتي لا سند لها وأغلبها شطحات لا يقرها الفعل، وقد افتتن بها القصاص - كعادتهم -، فبالغوا في مرضه وجعلوا جميع الناس تنفر منه وتبتعد عنه، وبالغوا في عدد السنين التي لازمته في مرضه، وأن زوجته كانت تقوم بالخدمة في البيوت لتحصل على رزقه، بل وجعلوها تبيع ضفائرها وكان هذا سببًا في قسمه عليه السلام لأن يضربها مائة سوط، والصحيح أنه أقسم على ذلك لأنها أبطأت عليه يومًا، وقد أوحى الله سبحانه بعد ذلك أن يأخذ مائة عود فيضربها ضربة واحدة، وهذا من الفرج لمن يتقي ربه ويطيعه، ولزوجته الصابرة المحتسبة رضي الله عنها.

وقد أخطأت الإسرائيليات أيضًا فيما ذكرته أنه عليه السلام ليس من ذرية إبراهيم عليه السلام لأنه ظهر في زمن قبله - حسب قولهم -.

والقرآن ذكر في أكثر من موضع أنه من «ذريته» والضمير عائد إلى الخليل عليه السلام، وقيل: أن نسبه ينتهي إلى إسحق بن إبراهيم عليه السلام، وأن أمه بنت لوط عليه السلام، وأن زوجته ينتهي نسبها إلى يوسف بن يعقوب - عليهما السلام -، وقد ذكر هذا ابن عساكر والرازي والبيضاوي وغيرهم.

هذا وقد وجدت كتابات منقوشة على الحجر في الجزيرة العربية وكلها تثبت ما جاء في القرآن من أنه عليه السلام من أقدم الأنبياء في جزيرة العرب وأنه بعث بعد الخليل عليه السلام، وإن كانت لم تحدد مكانه.

وأما ما ذكرته الإسرائيليات - زورًا وبهتانًا - بأن الله سبحانه سلط عليه الشيطان ليصب ألوانًا من المصائب على رأسه حتى يختبره - حاشا لله جلَّ وعلا علوًا كبيرًا - وحتى أنه عليه السلام نفذ صبره وفكر في الانتحار، وأنه أخذ يلوم ربه أشد اللوم لأنه نبذه وتخلى عنه . . !! ثم يعفو الله سبحانه عنه ويهبه الآلاف من

الإبل وغيرها من الثيران ليعيش حياة سعيدة . . أي أنها صورت الجزاء دنيوي وكأن الآخرة لا تغنيهم في شيء، أما القرآن فقد بين أن البلاء ليس للتعذيب وإنما للاختبار وذلك لإظهار ما في النفس من خير وشر، ثم يكون الجزاء في الآخرة كل حسب عمله؛ كما أخبر القرآن: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٧).

وقد جاء في دعوات الرسول ﷺ التعوذ من أشياء منها فتنة الغنى وفتنة الفقر، وأرذل العمر، وفتنة الدنيا، وفتنة النار، وحتى يعلم المؤمن مشروعية ذلك عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، ومن عذاب النار، وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال**» (رواه البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات).

ذو الكفل عليه السلام

النبي الصالح والملك العادل

(الكفل): الضِّعف وقيل إنه النصيب.

وكان حكمًا مقسطًا تكفل أن يقضي بين الناس بالعدل، ولهذا سمى «ذو الكفل».

وتقول بعض المراجع: إن الله سبحانه سماه بهذا لأنه تكفل بأمر فوفى به.

وقيل: الكفل هو الضِّعف من الأجر والثواب.

(إلياس): ومعناه الإنكسار والحزن.

(اليسع): ومعناه القاضي بين الناس بالحق.

وكل هذه المعاني ذكرها القرآن مقرونًا بالثناء عليهم، وأنهم من الأخيار.

يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٨).

وأما (إلياس) فقد أبقى سبحانه بعده ذكرًا حسنًا فلا يذكر إلا بخير، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات: ١٢٩-١٣٢).

وجاء في تفسير الجلالين عن ذي الكفل عليه السلام: أنه سمي بذلك لأنه تكفل بصيام جميع نهاره وقيام جميع ليله، وأن يقضي بين الناس بالعدل ولا يغضب فوفى بذلك (من تفسير سورة الأنبياء).

وجاء أيضًا: قيل كفل مائة نبي فروا إليه من القتل (من تفسير سورة ص).

ويربط أهل العلم بينه وبين النبي (اليسع) عليهما السلام، فقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم: أنه لما كبر اليسع عليه السلام، قال: لو أني استخلفت رجلاً على

الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس، وقال لهم: من يتقبل لي بثلاث استخلفه: يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب، فكان ذو الكفل عليه السلام (وقد ذكر مثل ذلك الكثير من أهل العلم وصحته تقترب من الحسن).

وأما ما جاء في بعض الروايات، واختلف أهل العلم فيه كثيرًا:

ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على ان يطأها، فلما قصد منها مقعد الرجل من امرأته، ارعدت وبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: هذا عمل لم أعمله قط وإنما حملتني عليه الحاجة، فقال لها: اذهبي بالدنانير لك ووالله لا يعصي الله الكفلُ أبدًا، فمات من ليلته فأصبح مكتوبًا على بابه قد غفر الله للكفل**».

وبينما نجد الترمذي يرويه من حديث الأعمش وقال حسن، نجد أن أبا حاتم يرى أن في إسناده نظر، وأما ابن حبان فقد وثقه، ولم نجد للرازي سوى هذا الحديث عنه.

والحديث بوجه عام ليس فيه قدح بذي الكفل كرجل صالح هم بسيئة ولم يعملها، وتعهد ألا يعصي ربه سبحانه فغفر له.

ولكن الحديث بهذه الرواية ينفي النبوة عنه، وذلك لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ هم صفوة الخلق، وكما وصفهم القرآن: ﴿**إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ**﴾ (ص: ٤٦-٤٧).

وربما كان الحديث عن رجل آخر اسمه «الكفل» وخاصة وأنه لم يذكر «ذو الكفل».

وكما ربط العلماء بينه وبين اليسع ـ عليهما السلام ـ، ربطوا أيضًا بينه وبين إلياس ـ عليهما السلام ـ، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٥-٨٦)، فقد قيل أن ذا الكفل هو ابن أيوب ـ عليهما السلام ـ، بينما رجح بعض المؤرخين أنه ابن إلياس عليه السلام.

وجاء في تفسير الوسيط: اختلف في نبوته، وإن كان أكثر العلماء تقول: إنه نبي من أنبياء بني إسرائيل، وإن لم تعرف المحنة التي صبر عليها ذو الكفل (من تفسير سورة الأنبياء).

وهكذا ارتبط الأنبياء الثلاثة باختلاف العلماء بينهم: يرى البعض أن ذا الكفل عليه السلام لم يكن نبيًا وإنما كان رجلاً صالحًا، ويرى غيرهم أنه نبي وحجتهم في ذلك أن القرآن ذكره في أكثر من موضع مع الأنبياء وهذا هو الرأي الراجح.

وأما اليسع عليه السلام فقد أكدت أكثر المصادر أنه اختار ذا الكفل ليقوم مقامه في القضاء بين الناس، ولكنهم أجمعوا على أنه نبي ظل متمسكًا بمنهاج النبي إلياس عليه السلام.

وأما إلياس عليه السلام فيقول بعض العلماء أنه هو إدريس عليه السلام وحجتهم حديث الإسراء، وهذا الرأي ضعيف.

ومع أن قصته عليه السلام جاءت مختصرة وواضحة في سورة الصافات عندما دعا قومه لعبادة الله سبحانه وترك عبادة صنم لهم، فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله، فهرب منهم واختفى عنهم، حتى أهلك الله سبحانه الملك الظالم وولى غيره، فأتاه عليه السلام فأسلم وأسلم الكثير من قومه، كما أخبر القرآن: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (الصافات: ١٢٣-١٢٥).

ومع كل هذا الوضوح إلا أن بعض الكتب امتلأت بالقصص الواهية من الإسرائيليات عنه وخاصة اجتماعه مع الخضر عليه السلام كل عام عند عرفات، وما قاله جبريل عليه السلام: «يا إلياس طر في الأرض حيث شئت مع الملائكة، فقد كساك الله الدين وقطع عنك لذة المطعم والمشرب، وجعلك آدميًا سماويًا أرضيًا»، وأيضًا ما قيل مرويًا عن كعب الأحبار: «أنه لما ولد إلياس طلع منه نور ساطع أضاء منه المشرق والمغرب، فقال بنو إسرائيل سلوا عند امتداد هذا النور، فتتبعوه فوجدوا مولودًا ينتهي نسبه إلى هارون عليه السلام».

والرأي أنه عليه السلام شأنه كشأن كل الأنبياء والرسل، وأنهم بشر اصطفاهم الله سبحانه من بين عباده وتجلت عليهم مشيئته ورباهم وأدبهم وفضلهم على العالمين، وأن الغاية من بعثتهم إلى البشر هو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكل منهم كان يبعث إلى قومه في زمان معين ومكان معين، حتى كان النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم فأرسله الله سبحانه للناس كافة إلى يوم القيامة.

وإلياس عليه السلام لم يميزه القرآن على غيره من الرسل، وقد وصفه بالإخلاص والإحسان، على عكس ما روجت له الإسرائيليات وجعلت منه آدميًا سماويًا أرضيًا مع الخضر ـ عليهما السلام ـ.

وقد أورد العلامة السخاوي في كتابه «المقاصد الحسنة» قصة اجتماعهما وعلق عليها بقوله: إلى غير ذلك مما هو ضعيف كله، مرفوعه وغيره ولا يثبت منه شيء.

وهذا ما عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: **«والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه»** (جزء من حديث صحيح وقد رواه أحمد من وجه آخر).

وقد جاء في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا: «**من ابتغى الهدى في غيره أضله الله**».

ولهذا حذر الله سبحانه المؤمنين من هذه الأمور التي تؤدي إلى الضلال: ﴿**وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ (آل عمران: ٦٩).

obeikandl.com

يونس عليه السلام

الساجد في مكان لم يسجد فيه أحد

يقول المفسرون: إن ذا النون هو يونس بن متى، وإن (النون) بمعنى الحوت وقد نسب إليه.

وجاء في المعاجم: (ن و ن) النون هو الحوت، (وذو النون) هو لقب يونس بن متى عليه السلام.

(نينوي) لم يرد الاسم في القرآن ومعناه: جميل، وهي عاصمة مملكة آشور: واسمه في الأسفار القديمة (يونان) ومعناه: الطائر الحزين وقيل: الطائر الحبيس.

وهو نبي كريم خصه الله سبحانه بأن جعل دعوته نجاة لكل مؤمن.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**» (رواه الإمام أحمد والترمذي).

يقول سبحانه: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الأنبياء: ٨٧-٨٨).

جاء في تفسير النسفي: «روي أنه برم بقومه لطول ما ذكرهم فلم يتعظوا وأقاموا على كفرهم، وظن أن ذلك يسوغ له البحث عن مكان آخر يكون أهله أكثر قبولاً للدعوة وأقل عداوة له، وهو لم يفعل ذلك إلا غضبًا لله وبغضًا للكفر وأهله، ولكن كان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله سبحانه في المهاجرة، فابتلي ببطن الحوت» (من تفسير سورة الأنبياء).

ويقول أهل العلم: إن الله ما نجاه إلا لإقراره على نفسه بالظلم، ولهذا لما نبذه الحوت لم يكن مذمومًا، أي أنه دخل في بطنه ملومًا، وخرج منه غير ملوم ولا مذموم، ولولا أن كان من الذاكرين لصار في بطن الحوت إلى يوم القيامة.

ويقول العلامة السوري الشيخ/ عبد القادر المغربي ـ عضو المجمع اللغوي بالقاهرة سابقًا ـ: «أما الاقتراع بين ركاب السفينة الذي ألجأ يونس إلى إلقائه في البحر، فسببه ـ والله أعلم ـ اكتظاظ السفينة بركابها وأثقالها، وغلبة العواصف واعتلاج الأمواج عليها، فرأى أهلها أن يخفوا عنها فألقوا أثقالها، ثم لما لم يفي ذلك بالحاجة، اضطروا أن يلقوا بعض الركاب أيضًا، ورأوا من العدل أن يقترعوا بينهم على من يلقونه، فأصابت القرعة يونس، فألقي بنفسه مكرهًا أو مختارًا، ولم يكن وقوع القرعة عليه من دون سائر رفاقه، والتقامه الحوت له أثرًا من آثار الاتفاق المحصن، وإنما هو لعمري أثر من آثار المشيئة الإلهية: ليكون ذلك جزاءً لمغاضبته، ومنبهًا له على فعلته، ثم إن يونس لما استقر في بطن الحوت، وتجرد بالكلية عن عالم الأسباب إلى عالم الملكوت، وشعر بخطر ما هو فيه، وخطأ ما كان منه، انتبه إلى وجوب الرجوع إلى ربه بالتوبة والإنابة، فرفع صوته في تلك الظلمات قائلاً: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وكأن المعنى في هذه الاستغاثة: إني يا رب قد ظلمت وغفلت عن بعض سننك الكونية في إيمان الأمم وجحودها، وإنحطاطها وصعودها، وانتعاشها وخمودها فسألتك لأمتي ـ أهل نينوي ـ ما لم تجر عادتك به، وما هو مدبر لسننك الحكيمة، ومشيئتك القديمة، فسقتني يا رب إلى هذه الظلمات، وجعلتني في هذا القبر المتحرك قبل أوان الموت، منبهًا لي بذلك إلى أن تأخير انتقامك عن قومي لم يكن ضعفًا منك، ولا عجزًا عن تبديل السنن والنواميس الكونية، وإنما هو اطراد لها، فلا يختل نظام الكائنات، وتنبيه للبشر إلى لزوم مراعاتها، وإنك

يا رب إذا شئت غيرت سنن الكون ونواميسه، كما غيرت نواميس الهواء والحياة والتنفس ودورة الدم في الجسد، منذ حفظت عليَّ حياتي، ودبرت لي معيشتي وأنا في بطن الحوت.

فلا غرو أن تكون تلك التسبيحة من سيدنا يونس، وهذا الاعتراف بأنه كان من الظالمين، خير وسيلة لقبول توبته وعفو الله عنه» (من تفسير سورة القلم).

يقول تعالى: **﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾** (الصافات: ١٤٢-١٤٦)، الإعجاز القرآني يتجلى واضحًا في كلمتين: **﴿فَالْتَقَمَهُ﴾**، والثانية **﴿يَقْطِينٍ﴾**.

بينما الكتب المحرفة قالت عن الأولى: «ابتلعته سمكة كبيرة»، وعن الثانية «شجرة العنب»، الكلمة الأولى «فالتقمه» في القرآن توحي بعدم الضرر، وخاصة وأن الحوت وإن كان أكبر الكائنات حجمًا إلا أنه ليس له أسنان ولا يتغذى إلا على الكائنات الدقيقة، وبينما الكلمة الأخرى «ابتلعته» توحي بالهلاك.

وأما شجرة يقطين وهي «القرع العسلي» فأوراقه كبيرة جدًا ومليئة بالمضادات الحيوية الطاردة للحشرات الضارة، على العكس من شجرة العنب.

هذه قصة سيدنا يونس عليه السلام الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: **«لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»** (رواه البخاري في صحيحه).

ولكن ماذا تقول الإسرائيليات في النبي «يونان» كما تسميه الأسفار القديمة؟

لقد ركزت على أمرين أبعد ما يكونا عن العقل: جعلته يغضب من أجل نعله، ومن أجل عدم السماح له بالتماس دابته، وأنه امتنع عن تبليغ الرسالة إلى الأشوريين بغضًا فيهم، وأنه غضب على ربه ـ حاشا لله ـ لأنه عفا عنهم.

وشتان بين النهاية في قصته عليه السلام في القرآن الذي ذكره في جملة الأنبياء الكرام، وكما جاءت في الأسفار القديمة: يائسًا، حزينًا، متمنيًا الموت عندما يبست شجرة الكروم.

وأما أهل الإلحاد - ومن على شاكلتهم - ممن لا يسلمون بشيء على الإطلاق إلا إذا تمشي مع العقل وحده، فتراهم يتساءلون: كيف يعيش في بطن الحوت حينًا من الزمن، ودون أن يخدش له لحمًا أو يكسر له عظمًا؟ وأما إذا كان الأمر من أن واحدًا من الأنواع المسمى بالدرفين التقطه بفمه ولم يبلعه وألقاه على الشاطيء فهو أقرب إلى العقل!!

وهكذا تصل بهم رحلة النفس الهابطة أو ما يمكن أن يسمى «الجدل الهابط» والذي تخصصوا فيه هم والعلمانيون، إلى وجود التناقض بين العقيدة والعقل . . !!

ونحن نسألهم بدورنا: كيف استطاع العقل البشري المحدود أن يجعل الإنسان يعيش في بطون الغواصات أيامًا متطاولات، تحت البحار الطاميات، ويطير مثل ذلك في أجواز السموات؟

إننا كمسلمين نؤمن حق اليقين أنه سبحانه القادر على كل شيء، وأنه خلق العقل البشري، ومهد له السبيل للوصول إلى كل ذلك، وأنه سبحانه يستطيع أن يغير نواميس ما في الكون كيف يشاء، وأنه سبحانه أمد عبده النبي الصالح يونس بن متى عليه السلام ببعض الأسباب والتي حافظت على حياته، يقول تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٧).